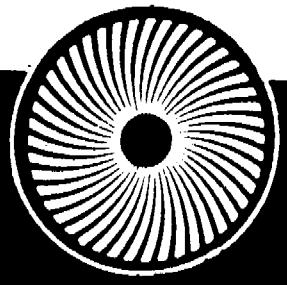

تفسير سورة النور

قال الله تعالى : (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونه لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) النور/ ٣٥ .

تفصيل المعاني :

(الله نور السموات والارض) :

النور في كلام العرب (الضياء) . وهو الذي تصل به الابصار الى مبصراتها بانعكاسه على الشبكة في العين وتأثيره في مركز الابصار في الدماغ . كضياء الاجرام اللامعة . والمصابيح الموقدة .

وكلمة النور — حين تضاف الى الله تعالى — يستحيل ان تطلق عليه بهذا المعنى المادي الضيق المحدود .. وانما تطلق باعتبار المفهوم الحقيقي لكلمة النور في ذهن الانسان . وهو ان النور ما كان ظاهرا بنفسه ومظهرا لغيره . اى انه سبحانه وتعالى صاحب نور الكون حسيه ومعنويه ، فالاجرام اللامعة ما نالت نورها الا من النور الذى امدها الله به ، وجميع الاشياء من الله ابتداء نورها ؛ وعنه صدوره .

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) يونس/٥ .

(تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) الفرقان/٦١ .

والعقل الذى منحه الله للانسان ليتفكر به ويتدبر فى خلق السموات والأرض وظواهر الموجودات فى الكون ، والهداية التى انزلها الله على رسله — عليهم الصلاة والسلام — لحفظ العقول من الشرود والضلال ، وفتح القلوب الى المعرفة والايمان .. كلاهما نور معنوي من الله، به تظهر حقائق الموجودات، وتعرف معرفة مباشرة كما تظهر وتعرف المبصرات بالضوء .. فالله تعالى هو الذي يبين للناس ما يهتدون به ، وهو الذي يخرجهم — بهذه الهداية اذا اقبلوا عليها — من ظلمات الوهم والخرافة ، وظلمات الحيرة فى تيه الارباب المتفرقة ، وظلمات الأوضاع الخاطئة والتقاليد الموجة .. الى النور الذى يكشف هذه الظلمات ويبددها . فى عالم الضمير ، وفى دنيا التفكير ، وفى واقع الحياة والقيم .

(وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض الا إلى الله تصير الامور) آخر سورة الشورى .

وقد ذكر المفسرون فى معنى قوله تعالى : **(الله نور السموات والأرض)** اقوالا :

احدها : ما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ان المعنى : الله هادي اهل السموات والأرض . وبه قال انس بن مالك رضي الله عنه .

ثانيها : ما ورد عن مجاهد والزجاج ان المعنى : مدبر الامور فى السموات والأرض .

ثالثها : ما ورد عن ابيّ بن كعب ان المعنى : مزين السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين .

وقال القرطبي فى تفسيره : معنى **(الله نور السموات والأرض)** اى به وبقدرته انارت اضواؤها ، واستقامت امورها ، وقامت مصنوعاتها ، فالكلام على التقريب للذهن كما يقال : (الملك نور اهل البلد) .. اى به قوام امرها وصلاح شئونها لجريان أموره على سنن السداد ، فهو في الملك مجاز كما قال النابغة فى مدح النعمان :

فانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وكما قال آخر :

فقد سار منها نورها وجمالها اذا سار عبد الله من مرو ليلة

وهو فى صفة الله حقيقة محضة . اذ هو الذى أبدع الموجودات وخلق فى الانسان العقل ، وزوده بالهداية على أيدي رسله .

وبالتأمل فى هذه الأقوال نرى أن تفسير ابن عباس للآية بأن الله هادي أهل السموات والأرض تدخل فيه المعاني التى ذكرت فى الأقوال الاخرى .. ذلك أن هداية الله — المتمثلة فى كتابه وما حوى من حجج ودلائل — هى التى كشفت للعقول قدرة الله وتدبيره ، كما كشفت للقلوب طريق الوصول الى طاعة الله ومرضاته .

على أن تفسير ابن عباس أكثر المعاني تناسقا مع معاني الآيات التى سبقت هذه الآية .. فتلك الآيات جاءت تبيانا للأحكام والآداب التى تحفظ كيان الأسرة ، وتصون شرفها . فقد عالجت شهوة العين والفرج ، ورغبة التجريح والتشهير ، بتشديد حد الزنا ، وحد القذف ، وحكم اللعان . كما عالجتها بوسائل الوقاية .. من وجوب الاستئذان على البيوت ، وغض البصر ، وحفظ الفرج ، والنهي عن ابداء المرأة لزينتها ، أو قيامها بالحركات المثيرة ، والأمر بتيسير الزواج ، ومنع البغاء ، وتحرير الرقيق .. وعالجت الآيات ما تخلف عن قصة الافك على عائشة رضي الله عنها من غضب وغيظ ، ومن اضطراب فى المقاييس ، وقلق فى النفوس . فاطمأنت نفس الرسول — صلى الله عليه وسلم — ورضيت نفس عائشة ، وصفت وتسامحت نفس أبي بكر ، وقرت عين صفوان بشهادة الله وتبرئته ، وثاب المسلمون الى ربهم يشكرون فضله ورحمته .. فكانت آيات بينات وموعظة للمتقين .

وبهذا التبيان ، وبهذا التوجيه أشرق الكيان البشري بالنور الذى انزله الله ليهدي الناس الى صراطه المستقيم . **(الله نور السموات والأرض)** .

(مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) : اى مثل هداه لاهل السموات والأرض .

وهدى الله يطلق على ما أقام الله لعباده من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن ، كخلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، ونزول المطر من السماء ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، وغير ذلك من الآيات الكونية التى تدركها العقول المتدبرة ، فتهتدي بهذا الادراك الى معرفة خالق الكون ومبدعه ومدبر أمره . فهو سبحانه يشبه هذه الحجج والدلائل بنور المصباح فى المشكاه ، فانها لوضوحها عند التدبر والتعقل تكاد تضيء القلوب بالايمان .

ويطلق هدى الله على القرآن الكريم الذى انزله على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام ليخرج به الناس من الظلمات الى النور . فهو نور من الله وهدى ، تتجلى تحت أشعته الكاشفة ، وبراهينه الساطعة ، حقائق الأشياء واضحة ، ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محددا مرسوما فى داخل النفس ، وفى واقع الحياة على حد سواء .. وتلك حقيقة يجدها المؤمن فى قلبه ، وفى رؤيته وتقديره للأشياء ، ولا يجدها احد غيره .

وقد سمى الله القرآن الكريم نورا فقال : **(يايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا)** ١٧٤ النساء .. وقال : **(فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى انزلنا والله بما تعملون خبير)** ٨ التغابن .

قال ابن جرير الطبري فى تفسيره :
ذلك مثل ضربه الله للقرآن فى قلب اهل الايمان فقال : مثل نور الله الذى أنزله لعباده فى قلوب المؤمنين المصدقين مثل مشكاة فيها مصباح ، فقلوب المؤمنين هى المشكاة ، والقرآن هو المصباح الذى تجمعت فيه جميع أسباب النور ، فأضاء هذه القلوب .

وهذا الكتاب الكريم قد وعاه رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعقله وقلبه ، وبلغه للناس بصدق وأمانة : **(وأوحى الىّ هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ)** ١٩ الانعام .

وقد منح الله تعالى رسوله خلالا ، كل واحدة منها كانت عنصرا فعالا فى نجاح دعوته وتحقيق رسالته .. فالصبر والمصابرة ، والجد والمثابرة والتلطف فى الدعوة ، والتأديب باللمحة والنظرة ، والتعليم بالأسوة والقدوة والطهر فى السيرة والسريرة .. هذه الخلال الكريمة وأمثالها مكنت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى سن الاربعين ، من الوقوف وحده فى صف والعالم كله فى صف ، فما زال بالأبواب الموصدة حتى فتحت ، وما زال بالقلوب النافرة حتى اقبلت ، وما زال يكافح وينافح حتى امضى رسالته وانفذها من أولها الى آخرها ـ على الرغم من غرابتها وسموها ومثاليتها ـ وحتى ربى رجالا حملوها من بعده ، ونقلوها على معبرة التاريخ لتبلغ كل اذن وتصل الى كل عقل ، باسم الله ثم اسمه .

ومن ثم كان لا عجب أن يسمى الله رسوله بما سمى به الشمس ، فيسميه (سراجا منيرا) فى قوله تعالى : **(يايها النبي إنا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا)** الأحزاب/٤٥و٤٦ ويسمى الشمس « سراجا وهاجا » في قوله تعالى : **(وجعلنا سراجا وهاجا)** النبأ/١٣ .

والخلق يحتاجون الى السراج الوهاج فى وقت دون وقت ، فصلاح حياتهم لا يتأتى مع دوام ضوء الشمس فى كل وقت ، ولا مع انقطاعه فى كل وقت ، أما السراج المنير فالخلق يحتاجون اليه فى كل وقت وفى كل مكان ليلا ونهارا سرا وعلانية .

ويصح أن يطلق نور الله وهداه على النور الذى يقذفه الله فى قلب المؤمن ـــ حين يستشعر تقوى الله ، ويؤمن حق الايمان برسوله ـــ فيجعله يشرق ويرى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، فلا يتخبط ، ولا تلتوي به الطريق وذلك معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري (اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله) ومعنى ما ذكره الفخر الرازي فى تفسيره عن أبي ابن كعب : « المؤمن بين اربع خلال:ان اعطى شكر ، وان ابتلى صبر ، وان قال صدق وان حكم عدل .. وهويتقلب فى خمس من النور : كلامه نور وعمله نور ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره الى النور يوم القيامة » .

وقال القرطبي فى تفسيره :

وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل به . بل وقع التشبيه فيه جملة مجملة ، وذلك ان يريد : مثل نور الله الذى هو هداه واتقانه صنعة كل مخلوق ، وبراهينه الساطعة على الجملة كهذه الجملة من النور الذى تتخذونه أنتم على هذه الصفة التى هي ابلغ صفات النور الذى بين أيدي الناس . فمثل نور الله فى الوضوح كهذا الذى هو منتهاكم أيها البشر .

والمشـــكاة :

هى الكوة الصغيرة فى الحائط غير النافذة ، يوضع فيها المصباح ، فيكون اكثر انارة منه فى غيرها ، لأنها تجمع ضوءه ، وتحصر نوره .

والمصـــباح :

هو الفتيل موقدا .

(المصباح فى زجاجة) المصباح الموقد موضوع فى زجاجة تقيه الريح ، وتصفي نوره .

(الزجاجة كأنها كوكب دريّ) : أي أنها زجاجة عظيمة الصفاءة ، جيدة الجوهر .

(يوقد من شجرة مباركة زيتونة) : يوقد المصباح من زيت شجرة مباركة من شجر الزيتون ، والمباركة المنماة ، والزيتون من أعظم الشجر نماء ، ومن أطوله عمرا ، زيته يسرج به ويستعمل أداما ودهانا ودباغا ، وحطبه يوقد به .

وفى القرآن الكريم اشارة لهذه الشجرة ولأقرب منابتها الى جزيرة العرب **(وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين)** المؤمنون/٢٠ .

(لا شرقية ولا غربية) .

قال ابن عباس : الشرقية هي التي تصيبها الشمس اذا شرقت ولا تصيبها اذا غربت والغربية بالعكس ، فمعنى الآية : لا شرقية فقط ولا غربية فقط ، بل هى شرقية غربية ، أى أنها شجرة فى صحراء ومنكشف من الأرض . لا يواريها عن الشمس شيء منذ طلوعها فى الشرق صباحا الى غروبها فى الغرب مساء .

وشجرة هذا شأنها يكون زيتها أصفى الزيوت والطفها .

(يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) : زيتها لصفائه وجودته وشفافيته يكاد يضيء بغير احتراق .

(نور على نور) : اى قد تجمعت للمصباح جميع أسباب النور فكان نوره أقوى ما يكون .

(يهدي الله لنوره من يشاء) : يوفق الله لاستقبال نور هدايته ـ الذى زاده ظهورا فى الأذهان بهذا المثل المحسوس ـ من يشاء من عباده ، وهم الذين توجهت عقولهم وتفتحت قلوبهم لهدايته .

(ويضرب الله الأمثال للناس) : ويضرب الله الأشباه والنظائر للناس توضيحا وتبيانا ، حتى يدركوا بالمثل ما عجزوا عن ادراكه فى الممثل به فيقترب الممثل به الى مداركهم . وقد ذكر الله ذلك فى معرض الامتنان على المكلفين من عباده .

(والله بكل شيء عليم) : يعلم طاقات العباد ، ويعلم من يستحق منهم الهداية ومن لا يستحقها ، فيضع الهداية فى موضعها لأنها منحة من الله مقصورة على من يسلك السبيل اليها ويفتح قلبه نحوها ، ويطلبها بجد واخلاص .

المعنى الاجمالي :

اخبر الله تعالى أنه هادي أهل السموات والأرض ، بدلائله الكونية وقرآنه الكريم ، وسنة رسوله العظيم ، وتوفيقه للمؤمنين ، وهدى الله هو الهدى ولا هدى سواه .. وقد شبه الله هداه بالمشكاة التى تكون فيها زجاجة جيدة الجوهر وفى الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية فى الصفاء ، لأنه زيت زيتونة لا يواريها عن الشمس شيء منذ طلوعها فى الشرق صباحا الى غروبها فى الغرب مساء ، فهى ليست شرقية فقط ، وليست غربية فقط ، وانما هى شرقية غربية ، يكاد زيتها لجودته يضيء بغير احتراق .

والأمور التى اعتبرها الله فى هذا المثل مما يوجب كمال الضوء ..

فالمشكاة تجمع نور المصباح وتحصره . والمصباح يتقد بأصفى الأدهان ، لأنه زيت شجرة من شجر الزيتون تغمرها الشمس صباحا ومساء : **(يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار)** . والمصباح موضوع داخل زجاجة صافية جيدة الجوهر ، فأشعته المنفصلة منه تنعكس من بعض جوانبها الى البعض ، وبذلك يزداد الضوء تألقا .

وهذه الأمور ـ حين تجمعت وتعاونت كانت نورا على نور ، فصار بها ضوء المصباح ضوءا كاملا .. لاح وسط الظلام فطرده ، ومن ثم صلح ان يكون مثلا لهدى الله الذى يلوح وسط الشبهات فيبددها ، ويظهر وسط الخرافات والأوهام فيقضي عليها ، ويحول الشك الى يقين ، والتردد الى ثبات ، واليأس الى أمل ورجاء ، والخوف الى أمن وطمأنينة ، والذلة الى عزة ، والمهانة الى كرامة ، والحيرة الى استقرار .

وهذا الهدى الذي زاد بالمثل وضوحا لا بد لتحقيقه في القلوب والنفوس من توفيق الله .. ذلك التوفيق الذى يمنحه الله لمن وجه عقله لتدبر الدلائل والبراهين ، وفتح قلبه لنور الايمان : **(يهدي الله لنوره من يشاء)** . **(ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم)** ١١ التغابن .

والله تعالى يضرب الأمثال للناس ليقرب مضرب المثل الى المدارك الانسانية القاصرة فيزاد في النفس وضوحا ، وفي العقل معرفة ، وفي القلب اشراقا .

ذلك هدى الله الذى أنار به الكون ، واقامه للناس دلائل واضحات : **(وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم افلا تبصرون)** ٢٠ ، ٢١ الذاريات . وأنزله على رسوله آيات بينات : **(هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم)** ٩ الحديد .

لقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخاطب بتلك الدلائل والآيات من عاشوا فى عصره ، وكان وجود الرسول بين القوم يدعوهم الى الايمان بربهم ، ويخاطبهم بكلام خالقهم ، نعمة كبرى عليهم بالاضافة الى فضل الله ورحمته بالوحي والرسالة .

واهل العصور التي تتلو عصر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وان كانوا لم يحظوا بنعمة وجود الرسول بينهم ، فان خطابه لهم ، وارشاده اياهم وعلاجه لأمورهم ، موصول فى كتاب الله وسنته . فقد قال — عليه الصلاة والسلام : (تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا ابدا كتاب الله وسنتي) .

والمؤمنون الذين آمنوا بالاسلام بعد عصر رسول الله وصدقوا فى ايمانهم هم أعجب الناس ايمانا كما قال رسول الاسلام — صلى الله عليه وسلم .

ورد فى صحيح البخاري أن رسول الله قال يوما لأصحابه :
(أي المؤمنين أعجب اليكم .. ؟ قالوا : الملائكة . قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم .. ؟ قالوا : فالأنبياء . قال : وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ قالوا : فنحن . قال : وما لكم لا تؤمنون وأنا بين اظهركم ؟ .. ولكن اعجب المؤمنين ايمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها) .

انها رسالة الاسلام تدعو الى نفسها بنفسها « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » . رسالة نزيهة القصد ، مجردة من كل غرض .. انها رسالة النور والايمان والعدل والاحسان .. رسالة الفطرة النقية السليمة ، والاخلاق الحسنة الكريمة ، والسياسة الرشيدة الحكيمة . فلماذا لا يعيش المسلمون في نورها ، ثم يحملون هذا النور الى البشرية كلها .. ؟ لماذا .. ؟ ثم لماذا .. ؟

(إنك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء) القصص/٥٦ .